

دراسة عادات الطعام وآداب المائدة في الوطن العربي

دكتوراه/ علياء شكري (✽)

أولاً - مقدمة ، في دراسة عادات الطعام وآداب الطعام :

من الواضح أن هذه الدراسة تندرج تحت أحد الأقسام الرئيسية في علم الفولكلور ، واعنى دراسة العادات الشعبية . وقد عرفت كتب المدخل في علم الفولكلور العادة بأنها ظاهرة أساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية الإنسانية ، وأنها حقيقة أصيلة من حقائق الوجود الاجتماعى . فنصادفها في كل مجتمع ، تؤدي الكثير من الوظائف الاجتماعية الهامة ، عند الشعوب البدائية ، كما عند الشعوب المتقدمة ، عند الشعوب في حالة الاستقرار وفي حالات الانتقال والاضطراب والنحول . وهي موجودة في المجتمعات التقليدية التي يتمتع فيها التراث بقوة قاهرة وإرادة مطلقة ، كما أنها استطاعت أن تحافظ على كيانها ووجودها في ظل مجتمعاتنا الحديثة المتطورة ، وابتكرت لذلك عديداً من الأشكال والصور الجديدة التي تناسب العصر . ولذلك فمن الخطأ الكبير الاعتقاد بأننا لا يمكن أن نلتصق العادات الشعبية (أي العادات الاجتماعية) إلا في التقاليد العتيقة المتوارثة فحسب ، كما أنه من العبث الانتصار عند محاولة تفسيرها على أرجاعها إلى صورها القديمة وأصلها الفابرة فالعادات الشعبية ظاهرة تاريخية ومعاصرة في نفس الوقت . وقد تبدو لنا في بعض الأحيان خلواً من المعنى . ولكن من الخطأ التماس معناها في صورتها الأصلية والقديمة فقط . فهي تتعرض لعملية تغير دائم يتجدد بتجدد الحياة الاجتماعية واستمرارها وهي في كل طور من أطوار حياة المجتمع تؤدي وظيفة وتشبع حاجات ملحة . ومن البديهي أنها في أدائها لهذه الوظيفة في مجتمع معين (محدود بزمن معين ومكان معين) ترتبط بظروف هذا المجتمع وواقعه (١) .

وسرني فيما يلي تفصيلاً كيف أن هذا التعريف ينطبق بكل تفاصيله على عادات الطعام وآداب المائدة . فهي جزء أساسي راسخ من التراث التقليدي المتوارث في كل مجتمع . ومع أنه مستمد من التراث ، إلا أنه يعيش في تفاعل كامل مع الواقع الحي للمجتمع ، يتطور وينجدد بتجدد الحياة في هذا المجتمع .

(✽) أستاذ علم الاجتماع — بكلية البنات — جامعة عين شمس .

ولا يمكن أن تتكامل أمامنا الصورة عن تراث أي مجتمع وعن خطوط الصغير فيه بنون أن نتعمق في دراسة عادات الطعام فيه ، نهرى في نظرنا تفوق في أهميتها عادات دورة الحياة (الزواج وال ميلاد والموت) لأن الأخيرة لا تنتكر في حياة الفرد سوى مرة أو مرات قليلة . أما عادات الطعام متلازمه مرات في اليوم الواحد ، ولا تنتضى ساعة من يومه دون أن يمر بتجربة تنطوى على طعام أو شراب ، داخل بيته أو عند مضيف له . . الخ . وسوف استعرض بالتفصيل وجوه أهمية دراسة هذا الموضوع بالذات .

وأكنى أود قبيل ذلك أن أؤكد أن عادات الطعام لا تقتف قائمة بمفردها ولا يمكن أن تدرس بمعزل عن الاطار العام للمجتمع الذى نمارس فيه . وهى في هذا تتشابه مع كل عناصر التراث الشعبى . ولكن الذى أود إبرازه بالنسبة لعادات الطعام بوجه خاص أنها تتداخل مع عناصر التراث الشعبى الأخرى . وسوف نرى أن مظاهر أهمية دراسة موضوع عادات الطعام وأداب المائدة أنها تتقاطع وتتداخل مع عناصر شتى من التراث ومع موضوعات تد تدو للوهلة الأولى بعيدة الصلة بموضوع من صميم ميدان العادات الشعبىة . فعادات الطعام كما رأينا وثيقة الصلة بالجانب المادى من التراث لأن الطعام كما سنرى مكون من عناصر مادية ويعد بأدوات ويحفظ فى أوانى ويقدم فى أوان وعلى موائد . . الخ .

كما نقودنا دراسة عادات الطعام الى ميدان الأدب الشعبى على اتساعه فأعداد بعض مواد الطعام كالعسل أمام الفرن أو على الرحاية . . الخ مجال لترديد بعض الاغانى الشعبىة التى تحمل مضمونا خصبا ، وتسنهدف التخفيف من مشقة العمل ، وتزجية الوقت الطويل الذى تستغرقه تلك العمليات . ثم أن عذا الميدان يرتبط ببعض الظواهر المتميزة التى تجد تعبيرا عنها فى الامثال الشعبىة : فالأكل والخجول والمرأة المجتهدة وتلك الخاملة ذات المهارة الضئيلة فى اعداد الطعام . . الخ . كل تلك صور يسجلها المثل الشعبى ، وتتردد عند المناسبة التى ترتبط بها تدعيما لوجهة نظر قائل المثل فى تقييم الموقف المعاش .

أما الارتباط بين موضوع عادات الطعام وميدان المعتقدات الشعبىة فتوى ومتشعب . ذلك أن كثيرا من الآداب التى نصادفها إنما ترتكر على طائفة من القيم المتأصلة فى الثقافة الشعبىة (كالعلاقة بين الصغير والكبير — وبين الرجل والمرأة ، والكرم ، والبخل . . الخ .) وهى أمور سوف تلتفت دراسة عادات الطعام نظرنا إليها بأقصى قدر من الوضوح . ثم أن كثيرا من العادات والممارسات المتبعة تعكس ايماننا من ممارستها بالحسد والعين الشريرة . . وما الى ذلك ، وهى أيضا أمور ستبدو بجلاء حتى من نظرة سريعة

الى أسئلة الدليل الذى وضعناه لدراسة عادات الطعام وآداب المائدة .
 اما الارتباط القوى بين موضوعنا والدين فسوف نخصه بالذكر فى اثر من
 موضع من هذه الورقة وقد أكدته كل الدراسات السابقة بما لم يعد معه فى
 حاجة الى مزيد من الايضاح .

ونجد مظهرا آخر للارتباط بميدان المعتقدات الشعبية فى العلاقة الوثيقة
 بين بعض الممارسات الغذائية وميدان الطب الشعبى ، فهناك ممارسات تتم
 لاعتبارات الفوائد والخصائص الطبية ، واكلات تفضل واصناف تكره ،
 ونصائح توجه ، وما الى ذلك من اعتبارات تملحها اعتبارات المصلحة والفائدة
 من وجهة نظر التراث الطبى الشعبى فى المجتمع .

نلك نبذة سريعة تؤكد لنا مدى الشمول والانتساع الذى يتميز به موضوعنا
 فى داخله وترابطه مع شتى عناصر التراث الشعبى الأخرى (٢) .

تلك هى المكاتبة العامة لموضوع عادات الطعام وآداب المائدة كجزء من
 ميدان دراسة العادات الشعبية الواسع . وسانتقل فيما يلى الى استعراض
 بعض مظاهر أهمية دراسة عادات الطعام .

ثانياً - أهمية دراسة عادات الطعام وآداب المائدة :

١ - يلاحظ المتأمل لموضوع الطعام ان المأكولات التى يتناولها الناس فى
 المجتمع تنتهى فى العادة بانتهاء الوجبة التى تعد لها ، او تنتهى بعد بضعة
 ساعات او أيام قليلة حسب قدرتها على مغالبة عوامل الفساد والتحلل .
 ولكن القاعدة العامة انها تختفى ، بحيث لا يبقى منها أى اثر يمكن ان
 ينتقل من جيل الى جيل . فنحن لا نعرف الآن ماذا كان آباؤنا او اجدادنا ياكلون
 الا من مصادر ثانوية ، أى عن طريقة حديثهم هم ووصفهم للطرق التى كانت
 متبعة فى اعداد اصناف الطعام المختلفة . اما تلك الاصناف نفسها ، اما مذاقتها ،
 اما شكلها فلا نستطيع ان نراها بأنفسنا رؤية مباشرة . وتظل معلوماتنا عنها
 كما قلت معلومات من مصادر ثانوية . والجزء الأكثر دواما من مكونات الطعام
 هو الادوات والوانى المستخدمة فى اعدادها ، وهذه نقطة سنناقشها فى موضع
 لاحق من هذه الفترة .

لهذا فان تلك السمة الاساسية لموضوع الطعام تفرض علينا ضرورة
 الاهتمام المركز بدراسة كل ما يتصل به من عادات وادوات . لأن تلك العادات
 لا تمارس الا فى وجود الطعام « وعلى الطبيعة » - ان صح القول . وإذا
 كنا نضع ترتيب أولويات لموضوعات دراسة التراث الشعبى ، فلا بد ان يأتى

موضوع عادات الطعام وآداب المائدة على رأس تلك القائمة للاعتبارات التي أوضحناها ، والتي تدفعنا الى أن نولى أكبر اهتمام للموضوعات الأكثر عرضة للاختفاء والضياع .

٢ - هناك نقطة أخرى تمثل عنصرا من عناصر أهمية موضوعنا ، ذلك أن ظهور أصناف جديدة من الوان الطعام وظهور مظاهر جديدة من آداب الطعام يترتب في كثير من الاحوال على تأثير الاتصال بثقافات أخرى . حقيقة الابتداع والتجديد - من داخل الثقافة - يلعب كما نعلم دورا في تجديدها وتطورها ، ولكن النقل والاستعارة يلعبان دورا بارزا بوجه خاص في ميدان الطعام ، فتدخل الى الثقافة أصناف جديدة لم تكن معروفة وادوات ومعدات لم تكون موجودة ، فيتغير عالم الطعام تغيرا جوهريا نتيجة ذلك الاتصال . ومن البديهي أن اختفاء بعض العناصر والسمات المحلية قد يترتب هو الآخر على الاتصال بثقافات أجنبية ، وذلك بطريق مباشر أو غير مباشر . الطريق المباشر أن نأخذ عن تلك الثقافات استهجانها لبعض تلك الالوان أو العادات ، فننتقل نحن عنها . وغير المباشر أن يؤدي استعارة أصناف وعادات جديدة الى « ازاحة » عناصر تقليدية أو أصناف تقليدية كانت موجودة في الماضي ، ولم نستطع أن نثبت وجودها وتدعم استمرارها في وجه تيارات التجديد .

رتبنا لعملية الثبات والتغير (التغير بزرع عناصر جديدة ، أو التخلي عن عناصر تقليدية قديمة) سوف يكشف لنا بجلاء خطوط الاتصال الثقافي أو الاحتكاك الذي تم بين ثقافتنا التي ندرسها والثقافات الأخرى القريبة منها أو البعيدة . ولعل استعراض بعض الوان الطعام وبعض عناصر الآداب المتصلة بها في منطقة كالحجاز سوف تكشف لنا تيارات التأثير الثقافي التي تعرضت لها تلك المنطقة على امتداد تاريخها البعيد والقريب (٢) . في الماضي تعرضت لتأثيرات ثقافات شرقية (آسيوية وأفريقية وأوروبية) ، واليوم تتعرض لثقافات شرقية وغربية (علاوة على السابقة الثقافات الأوروبية والأمريكية) والتحليل المنفصل سوف يضع لنا النقط على الحروف في هذا الموضوع .

٣ - لا يخفى على أحد من يطالع أحد المصادر الدينية التي تعرضت بشيء من التفصيل لموضوع عادات الطعام وآداب المائدة مدى الاهمية التي يمثلها هذا الموضوع من وجهة النظر الدينية . ونضرب مثلا على ذلك بمؤلف الغزالي الشهير : « احياء علوم الدين » (الذي خصص كتابا عن العادات لدراسة هذا الموضوع وايضاح وجهة النظر الدينية فيه) .

٤ - تعد عادات الطعام وآداب المائدة - كما يدل على ذلك كل سؤال من أسئلة الدليل - ظاهرة اجتماعية وثيقة الاتصال بالظواهر الاجتماعية الأخرى . فهي انعكاس لوضع الأسرة الطبقي أى مكانتها على سلم التدرج الاجتماعى القائم . وهى فى كثير من الأحوال صدى لنوع المهنة التى تمارسها الزوجة أو يمارسها رب الأسرة ، أو كليهما معا ، حيث يتدخل ذلك فى تحديد عدد الوجبات ، ومكوناتها ، وطبيعة الوجبة الرئيسية وتمييزها عن الوجبات لأخرى .. الخ . وعادات الطعام من أكثر الظواهر حساسية لعوامل التغير التكنولوجى الدائر فى المجتمع . فهى تستفيد منه وتتأثر به سلبا أو ايجابا . وتوضح أسئلة الدليل ضرورة الكشف عن مظاهر الأخذ بالمستحدثات التكنولوجية فى اعداد الطعام وحفظه .. الخ . كما أن التجديد التكنولوجى قد عمل على اختفاء اصناف وبعث اصناف .. وهكذا .

هذه مجرد أسئلة تكشف لنا هذا البعد الاجتماعى الهام لموضوعنا وهو فى نفس الوقت المحور الذى ستدور حوله كل تحليلات هذه الدراسة فى المستقبل . من أجل ذلك جاء التنبيه فى أكثر من موضع من مواضعها الى ضرورة ارتباط هذه الظاهرة أو تلك بالوضع الطبقي الاجتماعى للأسرة ، أو بمهنة رب الأسرة أو ببعد الرجل والمرأة (نميا يختص باطعمة للرجال وأخرى للنساء ، وكذلك مهمة اعداد الطعام ، وتقديره .. الخ .) أو ببعد الصغار والكبار .. الخ فنحن وان كنا قد أبرزنا الإشارة فى مواضع معينة الى هذا البعد ، الا أننا نؤكد على الجامع ضرورة مراعاته فى كل ما يجمعه من معلومات أو يسجله من ملاحظات (٤) .

٥ - ومن وجوه أهمية موضوعنا كثرة تكرارها بالمقارنة بكل عناصر التراث الشعبى الأخرى . حيث المحت سابقا الى أن عادات دورة الحياة قد تتكرر مرة واحدة فى حياة الانسان ، وقد يشهدها هو (بالنسبة لغيره) بنسخ عشرة مرة ، ولكن عادات الطعام تتفوق على كل هذا من حيث كثافة ممارستها . فهى تمارس مرات ومرات فى اليوم الواحد ، وهى لذلك حاضرة فى فكر واسلوب كل شخص يعيش فى مجتمع .

٦ - كما أن من الأبعاد الهامة لهذا الموضوع انه يعد أداة هامة للكشف عن الفروق البدوية الحضرية من ناحية والريفية الحضرية من ناحية أخرى . فكثير من اصناف الطعام وما يرتبط بها من عادات وآداب مميزة بطبيعتها للبيئة الريفية ، وهناك أخرى مميزة للبيئة الحضرية . فالخبز فى القرن داخل البيت ظاهرة ريفية خالصة ، وطحن الحبوب داخل البيت ، وتربية الطيور فى البيت .. الخ . كل ذلك ظواهر ريفية متميزة . فى مقابل هذا نجد اعتماد

البيئة الحضرية على شراء الخبز من السوق ، وشراء الاطعمة نصف المصنعة أو الجاهزة ، والاعتماد على المعلبات وعلى اللحوم المحفوظة والمثلجة . . الخ . وبين البيئتين — كما هو معروف بدهاة — تعامل حي دائم لا ينقطع ، حيث سنرى ان البيئة الريفية أخذت تعرف الاعتماد الجزئى على الخبز الجاهز وعلى اللحوم المحفوظة والمثلجة . . الخ . ويفضل التقدم التكنولوجى أخذت بعض الاصناف التقليدية تستعيد حياتها من جديد كالرقاق والشعرية . . الخ . والشخص الريفى الذى يعيش فى المدينة نستطيع ان نستدل على ثقافته وعلى مدى تمسكه بها من واقع معرفتنا بعادات طعامه ونظام وجباته . . الخ . ولذلك تتبنى هذه الدراسة — ضمن منظورها السوسىولوجى العام — الاهتمام ببعد البدو والريف والحضر من خلال استخدام مؤشر عادات الطعام وآداب المائدة .

٧ — ان اهتمامنا بدراسة هذا الموضوع الهام أصبح واجبا وطنيا وضرورة علمية بسبب ما تعرض له هذا الموضوع فى الماضى من اهمال ومن تقصير من جانب الدارسين . اذ يعد الاهتمام العلمى بدراسة عادات الطعام وآداب المائدة من الظواهر الحديثة فى علم الفولكلور والعلوم الثقافية بصفة عامة . ذلك ان هذا الميدان قد حرم فترة طويلة من اهتمام الدارسين الجادين ، وترك دون تطوير فى الوقت الذى انطلقت دراسات الادب الشعبى وغيرها من موضوعات علم الفولكلور . فما هو سبب فى ذلك ؟

هناك بعض الاسباب ذات الطبيعة العلمية ، كما ان هناك اسبابا اجتماعية عامة ، لا ترجع الى ظروف تطور علم الفولكلور أو الى تقصير من جانب المشتغلين بهذا العلم . ففيما يتعلق بعلم الفولكلور نعرف ان هذا العلم قد بدا فى اول مرة كدراسة للادب الشعبى ، وظل يفهم كذلك لأمد بعيد وفى كثير من البيئات العلمية التى نشأ فيها . وطفعت دراسة الادب الشعبى فى تلك البيئات على دراسة بقية عناصر التراث الشعبى الاخرى . ولم يستطع ان يلحق بميدان الادب الشعبى — ولكن بفارق كبير — سوى ميدان العادات والتقاليد ، ثم معه او بعده بقليل ميدان المستندات الشعبية . وظل ميدان الثقافة المادية والفنون الشعبية من المجالات التى لم تحظ بنصيبها الحق من الدراسة ومن الاهتمام الا فى وقت متأخر .

ومع ذلك لم يستطع موضوع عادات الطعام — وهو فى اساسه عنصر من عناصر العادات — ان يلحق بالتقدم فى ميدان دراسة العادات والتقاليد الشعبية . فدراسة الطعام والغذاء لها طبيعة خاصة لم تساعد على تحقيق

نك الاندفاع . فالمواد الغذائية وأصناف الطعام بطبيعتها عناصر تقصيرة العمر لا تدوم أكثر من ساعات أو أيام . ولذلك لم تلق أى اهتمام من جانب أصحاب المتاحف الأثنولوجية أو الفولكلورية . ومن ثم لم يجد رجل الفولكلور من تراث الماضى فى هذا الموضوع ما يمكن أن يحفزه الى التخصص فيه والانتكباب عليه . ولم يكن هناك من سبيل أمام من يود التعرق فى هذا الباب من أبواب العادات الشعبية سوى أن يتجه بكليته الى الحاضر . . الى النواقع المعاش لكى يرصد حركته ويعرف اتجاهاته ويسجل ما يراه ليقيحه لنفسه وللآخرين كى يكملوا تحليله وتحقيق كل جوانبه .

وهنا نصل الى تبين صعوبة أخرى من الصعوبات التى عاقت تقدم البحث فى هذا الميدان . ان الرواد الأوائل لعلم الفولكلور لم يكونوا ليجدوا فى انفسهم الشجاعة الأدبية الكافية لطرق هذا الموضوع على اعتبار أنه من «موضوعات النساء» . . كل الإخباريين من النساء ، وكل الوصفيات لابدلها من عقلية نسائية تسجلها وتحللها وتزن كل جزئية فيها بميزان النقد السليم لأننا كما يعلم القارئ لا نأخذ فى الدراسة الأثنوبولوجية أقوال الإخبارى كما هى بغتها وسمينها دون تحيل وتمحيص ولا دون مراجعة وتدقيق . وهكذا ظلت تلك النقطة بمثابة عقبة فى سبيل تطوير دراسة هذا الموضوع الهام من موضوعات تراثنا الشعبى ، ليس فى العالم العربى أو فى مصر نحسب ، بل فى العالم أجمع .

٨ - أشرنا من قبل فى أكثر من موضع الى أن دراسة مثل هذا الموضوع الهام تكشف جوانب كثيرة وحاسمة من ظاهرة التغير الثقافى والاجتماعى . ويمكننا بغض عديد من الدراسات المونوجرافية أن نشيد مثل هذه النظريات على نطاق محدود (إقليم أو منطقة معينة داخل المجتمع مثلاً) . وبفضل اجراء مزيد من الدراسات على عديد من المناطق ، يمكن توسيع نطاق تلك التغطيات النظرية بحيث نستطيع تشييد نظريات متوسطة المدى فى التغير الثقافى والاجتماعى . وهكذا يتسع نطاق الدراسات فيتسع نطاق الشواهد وصولا الى نظريات عامة (ربما على مستوى الوطن العربى ككل) فى التغير .

٩ - أن من شأن تطبيق دراسة اطلسية عن عادات الطعام وآداب المائدة أن يتسع نطاق التغطية الذى نستمد منه شواهد الدراسة ، بحيث تتحدد بدرجة أكبر من الموضوع مناطق الابتداع (أو التجديد) Innovation والفروق الإقليمية ، والعلاقات بين البادية والحضر وبين الريف والحضر ،

والمناطق الهامشية .. الخ . وذلك هو هدف الدراسة في علم الفولكلور بصفة عامة ، ولكن موضوع عادات الطعام وآداب المائدة يحقق هذه الرسالة بشكل عظيم الكفاءة كبير الدقة . (عن أطالس الفولكلور انظر محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الطبعة الرابعة دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ . الفصل العاشر : « الاتجاه الجغرافى وأطالس الفولكلور » من ٢٢١ — ٢٨١ .

١٠ — تعد دراسة موضوعنا هذا بمثابة مؤشر هام قادر على القاء الضوء على تطور مكانة المرأة في المجتمع . فالمرأة هي اللبطل الذى لا يتنافس في ميدان اعداد الطعام وتقديمه وتلفين الصغار آداب المائدة . وهى التى تقوم بالدور الاكبر في تنفيذ التجديدات التى تطرا على هذا الميدان ، وهى التى تؤثر بدخولها الى ميدان العمل العام (خارج البيت) بإحداث تعديلات هامة على حياة البيت ومن فيه ، وفي مقدمة ذلك عادات الطعام وآداب المائدة . وهناك عديد من أسئلة الدليل تستهدف القاء الضوء على هذا الجانب من جوانب الموضوع . فالمرأة العاملة — في الريف أو في الحضر — لا يمكن أن تجلس الى الفرن تخبز الخبز ، وهى لا يمكن أن تقوم بطحن الحبوب بنفسها ، وهى نالغ — سواء صرحت أم كابتت — عن اعداد الاصناف المعتدة أو التى يستعرق اعدادها وتتأطويلا اللهم الا في المناسبات أو في أيام الاجازات ، وهى لا بد أن تطلب العون من أولادها ومن زوجها .. الخ . ولا نجد موضوعا ملموسا يمكن أن يقدم لنا كل هذه التفاصيل عن تطور مكانة المرأة في البيت وفي المجتمع مثل موضوعنا هذا الذى نفوى دراسته بواسطة هذا الدليل .

١١ — هناك نقطة أخيرة تتصل بالقيمة التطبيقية العملية لمثل هذه الدراسة ، وهى نقطة مفيدة لكل من يتساءل عن قيمة بحث علمى معين ، خاصة من بحوث الدراسات الانسانية . ذلك لاننا نرى أن اسهام مثل هذه الدراسة في القاء الضوء على حياة الناس وعلى ثقافتهم وتطورها هو في نفسه قيمة كبرى للدراسة .

ولكننا مع ذلك نقول لمن يتساءل عن القيمة التطبيقية العملية : ان اجراء هذه الدراسة سيوصلنا الى فهم العادات الغذائية لمن أجريت عليهم الدراسة . وهذا أمر له أهميته على المستوى الوطنى العام لانه سيكون بمثابة الخلفية أو الاطار الذى بنى عليه تخطيطنا الغذائى ووضع السياسة المثلثى لترشيد هذا الغذاء . وهى كلها أمور ستكون لها قيمة كبرى في علاج كل العيوب أو نواحي القصور في النظام الغذائى للمجتمع (من حيث

ثرة الشرب على الاكل — أو كثرة اكل النشويات — أو نقص الخضروات أو نقص الفاكهة — أو الاعتماد على اصناف دور اخرى بشكل مبالغ فيه مما يخلق حالة عدم توازن غذائى .. الخ . وستكون لتلك المعلومات قيمة كبرى أيضا في الاتجاه الوقائى من اجل حفظ الصحة العامة للمواطنين والارتفاع بمستواها .

ثالثا — ملاحظات الباحث الذى يجمع مادة علمية بواسطة هذا الدليل (٥) :

هذه ملاحظات عامة لا يجمعها خط واحد ولا تدور حول قضية بالذات ، ولكنها تستهدف ان تنبه الباحث الميدانى الى بعض النقاط النظرية التى ركزت عليها أسئلة الدليل وقد يجد الباحث ذلك امرا غير مفهوم ، ولذلك قدمنا له بعض الايضاحات . وهناك ملاحظات أخرى تنبه الباحث الى بعض الخطوات أو القواعد العملية التى يحسن به الالتزام بها ومراعاتها أثناء عمله الميدانى . وقد يلتقى بعضها الآخر الضوء على بعض المفاهيم أو المصطلحات التى استخدمت بشكل مكثف فى أسئلة الدليل ، ولا بد من ايضاحها بقدر كاف فى ذهن الجامع ، لئى تضمن ان يسأل عن الموضوعات والظواهر الصحيحة .

١ — سيلاحظ الباحث ان أسئلة الدليل قد تركز فى بعض جوانبها على العناصر المادية أو على الاشياء objects .

نحن نحاول فى هذه الدراسة تقديم جانب من جوانب عاداتنا وتقاليدينا وقيم مجتمعتنا المرتبطة بالطعام . اى اننا لا نسعى الى تقديم دراسة فى الثقافة المادية اى فى الأدوات والجانب المادى من الثقافة . ولكن القارئ قد يتساءل وهو يطالع هذا الدليل ويقرأ الدراسة : ولماذا اذن ذلك الاهتمام الواضح بأوائى الطهى ومعداته ، وبالفرن ومختلف أنواع المواقد ، وبالمائدة ووصفها .. الخ . اليس تلك جوانب مادية واضحة . ولكن الحقيقة التى تد لا يتبينها المرء لأول وهلة هى أننا لن نستطيع ان نفهم العادات والتقاليد والقيم المرتبطة بالطعام ما لم نفهم كل تلك الجوانب المادية المحيطة به . فالطعام نفسه ظاهرة مادية . اغذية تعد بأدوات وتقدم فى أوائى فوق موائد .. وهكذا . والعادات والقيم المرتبطة بذلك انما هى نظرة تقليدية أو مواقف معنوية متداخلة فى تلك العناصر المادية ومرتبطة بها ومصيبة عليها . فتلك الجوانب المادية هى الاطار الخارجى للصورة التى نحاول ان نرسمها لعادات الطعام وآداب المائدة .

يضاف الى هذا بعد هام ، وهو اننا فى دراستنا لتلك الأمور نفتح

لأنفسنا سبيلا جديد لمعرفة تيارات التبادل الثقافي، وانتقال العناصر الثقافية — مادية أو غير مادية — من دائرة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر . نرصد حركة تلك العناصر المادية بقودنا مباشرة إلى احراز نجاح مؤكد في رصد حركة التغير الثقافي ومعاله .

٢ — ويلاحظ الجامع كذلك أن موضوع الخبز يحظى باهتمام أسئلة الدليل ، إذ يعد موضوع الخبز من موضوعات عادات الطعام التي حظيت بأكثر تدر من اهتمام الدارسين الأنثروبولوجيين الأجانب للمجتمعات العربية المختلفة . كما كانت دراساتهم لهذا الموضوع على أكبر تدر من النجاح والدقة ، والسبب الواضح لتوفيقهم هذا أن العملية تتم بشكل حي مجسد يسهل ملاحظته ، كما يسهل ملاحظة الأدوات المستخدمة فيه ، وتوزيع الأدوار في عملية الأعداد ، وسماع الأقوال والأدعية التي تتردد عند أعداده . الخ .

ومنذ القدم وموضوع الخبز يحظى بأكثر تدر من الاهتمام فيما يتصل بموضوع الطعام بصفة عامة ، ولعل الدليل على ذلك الدور الكبير الذي يلعبه الخبز في الطقوس ، والمنزلة التي يحظى بها في الكتابات الدينية ، أو انترات الاعتقادي عند كل شعوب العالم .

على أنه ليس هذا الأساس الديني هو وحده الاعتبار الأوحد فيما ينتمى به الخبز من مكانة في نظر المعتقد الشعبي . حيث أنه كان وما يزال العمود الفقري للغذاء عند قطاعات ضخمة من الشعب ، وبدونه لا يكون الطعام طعاما ، وبدونه لا يكون هناك اطمئنان من الإنسان على استمرار وجوده المادي وقدرته على الحياة .

وقد تدهورت مكانة الخبز في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وظهرت بعض الحركات والدعوات الرامية إلى احياء مكانته القديمة ، ودعوة الناس إلى العودة إليه .

كما أن سلعة الخبز والدقيق بصفة عامة من السلع التي تتمتع بدعم حكومي في جميع أنحاء العالم تقريبا ، شرقيها وغربيها لتصل إلى المواطن أعادي بسعر رخيص نظرا لما يتمتع به الخبز من مكانة ، ولأن توفره ورخصه يعد مقياسا لنجاح أي حكم ، خاصة في البلاد النامية التي أصبحت تجد صعوبة في توفير هذه السلعة للأعداد المتزايدة من سكانها .

هذا وقد أصبح القمح والحبوب بصفة عامة من السلع الصعبة على المستوى العالمي ، بعد أن عجزت كثير من البلاد النامية عن توفير احتياجاتها

الخاصة من الحبوب ، وبدأت تعتمد على الاستيراد من الدول الصناعية المتقدمة . فأصبح القمح وغيره من الحبوب من السلع التي تهدد بها الدول المتقدمة أو تلوح بها للبلاد التابعة أو الصغرة لحثها على نهج طريق سياسى معين أو تأييد خط أيديولوجى معين . نباتات الحبوب من السلع الصحية ، بل من اصعبها على الاطلاق . . احتمالات تقاوم هذا الوضع على المستوى العالمى وإن زداد معاناة البلاد النامية من جراء ذلك .

هناك علاوة على هذا بعض الاعتبارات السوسيلوجية التي تبرز أهمية دراسة كل ما يتعلق بالخبز ، نضرب مثالا على ذلك باستخدام كمية الخبز التي يتناولها الفرد المادى في كل وجبة كمؤشر للوضع الطبقي اليوم (فكلما انخفض هذا الوضع ازداد الاعتماد على الخبز كمكون رئيسى في الوجبة « والمكس بالعكس ») .

كما أن نوع الخبز المستخدم كان ومازال في بعض المناطق يعد هو الآخر مؤشرا على الوضع الاقتصادى والمكانة الاجتماعية (عيش السن ، عيش القمح الأبيض . خبز الذرة . الخ .)

كذلك يلاحظ ان عملية صنع العيش من العمليات المرهقة ولذلك نجد ان كل عملية من العمليات يصاحبها ادعية معينة لتسهيل هذه العملية من ناحية . ولكى لا يكون تعب من يقوم بهذه العملية من الاسباب التي تجعله يتقم على من لا يشترك فيها ويأكل دون معاناة . الخ .

٣ - ملاحظات حول ميزانية الاسرة وسياسة الانفاق :

من الاهمية بمكان ان نلقى أكبر ضوء ممكن على بنود ميزانية الاسرة بصفة عامة (لكى نحدد موقع بنود الطعام فيها) وتفاصيل بنود الطعام بصفة خاصة .

ذلك ان دراسة الميزانية بصفة عامة ومعرفة بنودها تعد من المؤشرات الهامة لتحديد الانتماء الطبقي للأسرة ، فالانفاق على اللحوم ، والبروتينات والفواكه يتزايد مع ارتفاع الوضع الاقتصادى والاجتماعى وينخفض بانخفاضه . والعكس بالنسبة للخبز فكميته المستهلكة على مائدة تعكس في تزايدها انخفاض المستوى الاقتصادى للاسرة والعكس بالعكس .

كما تعد دراسة ميزانية الاسرة وتحديد بنودها من أهم المؤشرات المفيدة في الوقوف على توزيع الادوار داخل الاسرة ، خاصة بالنسبة للدور

الكبير الذى كان يلعبه الزوج فى الماضى (كمائل الاسرة الوحيد - أو ابناؤه الذكور - معه أو من بعده) ، ثم تعاضم دور الزوجة داخل الاسرة بصفة عامة باكتسابها للتعليم ودخولها ميدان العمل وتحولها الى قوة اقتصادية مؤثرة وازدياد وعى المرأة بمكانتها الاجتماعية بصفة عامة (حتى ولو لم تكن عند نالت تعليما أو قدرة على الكسب) .

فقد كانت فى الماضى المجال الوحيد الذى تمارس فيه الزوجة تنوذا داخل الاسرة ، وفرصة تعاملها الوحيد فى النقود ، وربما مجال تعاملها مع الباعة أو مع أطراف خارج الاسرة . الخ .

كما تفيدنا دراسة بنود ميزانية الاسرة الخاصة بالطعام فى تحديد مستوى الوعى الغذائى لدى الشعب بوجه عام ، فهناك شعوب (باكلها وعنى اختلاف مستوياتها الاقتصادية الاجتماعية) تعتمد على النشويات فى الطعام ، وأخرى تكثر من اللحوم والبروتينات بوجه عام وهكذا . ولا شك أن الامر لا يتوقف دائما على الامكانيات الاقتصادية وحدها ، وانما يتوقف فى أغلب الاحوال على توفر الوعى الغذائى الصحى السليم . . وهو أمر يجب أن يحظى بأعظم الاهتمام من كل مشتغل بالتخطيط للتنمية الاجتماعية الشاملة .

وهناك جدوى علمية فنية على جانب كبير من الاهمية لدراسة ميزانية الطعام ، اذ انها تعكس فروقا واضحة بين المناطق البدوية والحضرية وبين المناطق الريفية والحضرية ، لانه من المؤكد أن الصورة العامة لتلك الميزانية تختلف من بيئة الى أخرى ، وان هذا الاختلاف ليس راجعا الى ظروف فربية أو عشوائية ، ولكنه نتاج للايكولوجيا ، ولخطوط واتجاهات التجديد الثقافى والمستوى تطور البادية والريف وتقدم الحضر . فدراسة هذا الموضوع مؤثر ورسيلة للوصول الى تحديد وفهم الفروق البدوية الحضرية والريفية الحضرية ، وسوف نجد علاوة على هذا ان الميزانية تعكس الظروف البيئية بصفة عامة فحضر السواحل بنود غذائهم تختلف عن حضر الداخل وريف السواحل كذلك ، وسكان القرى الواقعة على أطراف الصحراء . الخ .

٤ - يصادف الجامع كثرة تردد مصطلح اكالات المناسبات والمقصدود اكالات المناسبات تلك التى تعد بمناسبة موسم معين كالأعياد ، أو بمناسبة خاصة كميلاد أو زواج أو وفاة ، أو بمناسبة قدوم ضيوف اعزاء لهم مكانة خاصة عند الاسرة . وقد اشرنا الى كل تلك المناسبات بانها اكالات المناسبات ، وعلى الباحث أن يخصص فى كل حالة المناسبة التى يتناول فيها هذا الصنف أو ذاك باسمها ويحددها تحديدا دقيقا .

٥ — من المفيد أن يتسائل الجامع عن انتشار القهوة في دوائر معينة تختلف عن الدوائر التي ينتشر فيها تناول الشاي .

(مثلا : في بعض المجتمعات يشيع تناول القهوة على نطاق المجتمع كله ، على حين يقتصر تناول الشاي على دوائر أضيق — ربما ذات مستوى اقتصادى اجتماعى أرفع — حيث يتمتع الشاي بدائرة انتشار أوسع ، ويقتصر تناول القهوة بانتظام على دوائر أضيق بين كبار السن ، أو الخاصة ، أو في مناسبات معينة كالعزاء أو الضيافة بصفة عامة) .

كما أن هذه العلاقة بين مدى انتشار كل من القهوة والشاي ليست ثابتة أو دائمة ، ولكنها تتغير ، بل من الممكن أن يتبادل المشروبان مكانتهما نتيجة ظروف تاريخية اجتماعية معينة . تتبع بالتفصيل عوامل النمو أو الانحسار في كل حالة .

٦ — الارتداد الى التراث في بعض المناسبات وفي بعض القطاعات مخالفًا بذلك الاتجاه العام لنسيان جوانب كثيرة من التراث وتجاهلها بفعل ظروف التغير الاجتماعى العام : الاتجاه العام للتغير الاجتماعى في كل ما هو مصنوع باليد ، ومتوارث عن القدماء .. فظروف المسكن الحضرى الضيق وتحول الأسرة الى الشكل النووى ، وتضاؤل القطاع الزراعى (سكانيا وليس اقتصاديا) ، وتحضر الريف ، وانتشار المستحدثات الصناعية ، واثقال المرأة .. الخ . كل ذلك يبعدها بوجه عام عن الالتزام بالعادات الشعبية أو مظاهر الاحتفال بالمناسبات التقليدية من أعياد واحتفالات وغيرها .

ولكن الملاحظ أن المجتمع يجتاز مرحلة التخلي عن التراث هذه بسرعة ، ويقطع في فترة وجيزة نسبيًا مرحلة الوصول الى الرفاهية (سواء على المستوى الاجتماعى العام أو على مستوى طبقتى فقط ، وهذا هو الفرق بين المجتمعات الصناعية الغربية التي حققت الرفاهية لشعبها كله ، والمجتمعات الأخرى التي لم تحقق ذلك الا لشريحة صغيرة منها فقط) . المهم أن المجتمع ما أن يبلغ مرحلة الرفاهية ويعيش حياة الامتلاء ، حتى تبدأ تعاوده الميول الرومانسية ، وبحركة الحنين الى احياء الماضى . فنجد تلك المجتمعات تعرف على نطاق واسع ما يعرف بالنزعة الفولكلورية المتطرفة Folklorism نزعة احياء بعض عناصر التراث الشعبى بشكل متعمد ، وربما لاغراض تجارية أو سياحية .. الخ ولكنها تلعب كلها على وتر الحنين الى الماضى واغرازه وتبجيله .. الخ عند الجماهير الريفية .

فنجد من تلك المظاهر :

— العودة الى بعض الاكلات الشعبية وانتشارها والتمسك بها ربما بعد تطويرها .

— العودة الى الموسيقى الشعبية ويعد كثير من الترنيمات اللحنية واستخدام مطالع اغنيات شعبية قديمة في الاغاني المستخدمة .

— العودة الى تأكيد الاحتفال ببعض الاعياد الشعبية ، والمبالغة في بعض مظاهر الاحتفال بها — في مصر مثلا : كالمسرك الفننى الذى نعيشه في رمضان أو الفوازير وغيرها وكانما رمضان قد شرع مناسبة للفوازير .
والتمثيليات والمسرحيات الهزلية والحفلات الغنائية والسهر حتى الصباح .

— العودة الى بعض قطع الازياء الشعبية وانتشارها — بعد تطوير معين في القصة والقماش — بين القطاعات العليا من المجتمع ، كما نرى في لبس الجلباب البلدى الصوف الابيض وربما العباءة بين كبار القوم في مصر في مطلع السبعينات (يصل سعر تفصيل الجلباب الواحد ثلاثين جنيها أو يزيد أى يعادل تكلفة تفصيل بدلة كاملة أنيقة) .

٧ — سيصادف الجامع أثناء دراسته بعض أصناف الاطعمة والماكولات التى كانت تحتل في الماضى مكانة اجتماعية دنيا ، وينظر الناس الى من يأكلها أو بالذات من يكثر من أكلها نظرة دنيا . ثم حدثت وطأة عوامل متباينة أن تغيرت تلك النظرة ، بل نقول انعكست تماما . من تلك الظروف الارتفاع الرهيب في أسعار المواد الخام التى تعد منها تلك الماكولات ، كما لعبت العواطف والمشاعر الرومانسية دورا كبيرا في الاقبال عليها (فالحضري يشعر في تناولها اقترابا من بيئته الريفية ، والمغترب يرى في الاقبال غيوبا ردا لحنينه الى وطنه ، والمشتغلون بالسياحة أصبحوا يعتبرونها رمزا للاطعمة الوطنية .. الخ تلك الاعتبارات .

٨ — هناك مجتمعات باكملها أو أسر معينة تخلت منذ زمن عن صنع الخبز أو تربية طيور الذبح أو حيوانات الذبح . ولكنها تطلع عن ذلك في مناسبات بعينها فترتد الى سابق عهدها فتصنع مثلا رقاق العيد بالمنزل أو تكلف احدى السيدات التى لديها فرن بعمله بأجر) . . وبالنسبة لخروف العيد يفضل ان تشتري الذبيحة قبل العيد بفترة لعلفه وتسمينه قبل العيد ، فلا يصح أن تشتري اللحم من الجزار مباشرة صباح يوم العيد .

والمعروف أن الاتجاه العام للتطور في المجتمع كله يسير في الاتجاه

المعاكس ، فالتناس تشتري الاشياء الجاهزة حتى في الريف بدأ شراء الخبز الجاهز ينتشر ويتسع ، فما بالك بالارتاق . وكذلك لم تعد امكانيات القطاع الاكبر من سكان الحضر تسمح لهم بشراء خروف خاص بهم (لا يقل عن ٥٠ جنيها ، ويصل الى مائة) ، ناهيك عن وجود مكان لتربيته دون أن يؤثر ذلك على نظافة البيت ، أو يهدد وجود الخروف نفسه بتعرضه للسرقة (اذا ما وضع مثلا بسطح المنزل) .

ومن هنا نلفت النظر الى ان الاسر التي تعود — برغم هذا الإنجاد العام للتطور — وترتد الى التراث مرة أخرى . انها تثبت لنفسها ولناس مكانة تلك المناسبات في نفوسها . ويكون ذلك الارتداد الى الماضي تأكيدا منها لتمسكها باحياء تلك المناسبة .

٩ — الاسرة الممتدة المعدلة واكلات المناسبات والاجازات :

سيصانف الجامع مصطلحي الاسرة النووية والاسرة الممتدة داخلة في كثير من اسئلة الدليل . ولذلك يجب الانتباه الى مدلول كل مصطلح بدقة ، والاجاءت المعلومات بعيدة عن الحقيقة ، مستحيلة على المتارنة ، ذلك ان توحيد المفاهيم لدى الجامعين ضمان لنجاح البحث وضمان للوصول الى معلومات مقننة وموحدة . الاسرة النووية في ابسط تعريفها هي الاسرة الزوجية التي تقوم على الزوج والزوجة وأولادهما المباشرين ، أما الاسرة الممتدة فهي تلك التي تضم عددا من الاسر النووية تجمعهم صلة قرابة في خط الذكور مثلا أي ان يزوج الرجل — رب الاسرة الكبير — أبناء الذكور ، ثم يسكنهم معه في البيت الكبير ، ويعيشون حياة مشتركة . وقد يشتركون في المسكن وفي الطعام وفي الميزانية .. الخ . ويمثل هذا الشكل الصورة النمطية لهذا النوع من الاسرة حيث يتكفل رب الاسرة — سواء كان والد ارباب الاسرة النووية المشتركة أو اخاهم الاكبر — يتكفل بتدبير امور المعيشة ورسم الميزانية ، فالكل يعمل في ارض الاسرة وهو الذي تتجمع عنده كل دخول الاسر المشتركة في الاسرة الكبيرة ، ومنها يتولى الاتفاق على الجميع لكل حسب حاجته . وهناك فيما عدا هذا أشكال وسط بين الاثنين ، أو صور معدلة من هذه أو تلك ، (راجع علياء شكري وآخرون الاسرة ومشكلاتها ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٤) .

ونريد من الجامع ان يلاحظ ان مناسبة الاعياد والاجازات تمثل فرصة ينتهزها راس الاسرة الممتدة لكي يجمع شمل أفراد الاسرة ، ليس شرطا في

خط الرجل أو في خط المرأة ، وذلك عن طريق اقامة وليمة منتظمة في أيام الاجازات أو في الاعياد وعلى فترات دورية اطول من الاسبوع .

وتعد تلك المناسبة فرصة التقاء افراد الاسرة في الحضر ، حيث ان ظروف اشتغال الرجل والمرأة لم تعد تتح فرصة الزيارات المنزلية بكثرة ، كما ان المرأة أصبحت تستشعر الحاجة الى الراحة أيام الاجازات ، فمثل هذه الوليمة مناسبة لتحقيق ذلك .

وقد تساهم تلك الولايم من ناحية أخرى في احياء التراث فيما يتعلق بميدان الطعام ، حيث تحرص الام — سواء بمبادرة منها أو يطلب من اولادها — على اعداد الاصناف الصعبة المعقدة التي لم يعد وقت المرأة العاملة يسمح لها باعدادها أيام الاسبوع العادية . وبذلك تظل تلك الاصناف كالمحش بأنواعه — الفتة بشكلها التقليدي — البصارة — الرقاق — الحمام المحشى .. الخ) ، حية في ذاكرة الاجيال الجديدة « الاضداد » .

هل تساعد هذه الظاهرة على تشجيع الاتجاه العام الذي اشترت اليه من الصورة الى الاسرة الممتدة بشكل معدل ، وتوثيق الروابط من جديد بين الاسر النووية التي استقلت عن أسرة واحدة ممتدة في الماضي (١) ؟ .

كذلك يمكن ان تتم تلك الظاهرة على نحو آخر في حالة ما اذا كانت الاسرة الكبيرة ما زالت تعيش في الريف ، فينتقل الإبناء أو البنات بأسرهم الى القرية في المناسبات (الاعياد أو الاجازات الصيفية) لتحقيق نفس فرصة اللقاء . وبذلك يصبح الطعام والاستضافة في الريف محورا لتجديد جمع الشمل .

كما نلاحظ علاوة على هذا ان الوجبات كانت تمثل في الماضي (وفي الريف حتى عهد قريب) مناسبة التقاء كل افراد الاسرة ، ومع انتشار التعليم أصبح الاولاد ييكررون في الافطار والغذاء والعشاء احيانا ، وبالتفريغ لم تعد الوجبات تمثل مناسبة التقاء افراد الاسرة معا .

واقترنت وظيفة الوجبات في تجميع افراد الاسرة على وجبات أيام الاجازات او وجبات المناسبات (الولايم) . هل يعني ذلك ان تتحول وجبات أيام الاجازات الى ولائم أو يلتقى اعدادها اهتماما خاصا من ربة البيت ؟

١٠ — لابد ان يأخذ الجامع في اعتباره ان دارس عادات الطعام وآداب

المائدة يمكن أن يصادف بعض العقبات . وهى لا تزيد عن كونها صعوبات . — قد تزيد عمله صعوبة — ولكنها لا يمكن أن تحول بينه وبين تحقيق اغراضه من دراسته . ومن هذه العقبات أو الصعوبات ان اغلب الناس العاديين يعتقدون أن هذا الموضوع من الامور التى لا مبرر لدخولها فى نطاق البحث العلمى . فما هو الشيء المثير فى معرفة تفاصيل طعام الناس وشرابهم وكيفية جلوسهم الى الطعام ، وكيف يعدون « السلطة » ، وهل يغسلون ايديهم قبل الاكل أم لا . الخ . وتشبه هذه الصعوبات تلك التى واجهت رواد دراسة الاسرة فى جتل علم الاجتماع . حيث اعتبر الناس فى ذلك الحين ان امور حياتهم الاسرية من شئونهم الشخصية التى لا تهم سواهم ، وليست لها أى دلالة أو قيمة علمية معينة . وتذليل تلك الصعوبة يتم عن طريق ايفاح اهداف الدراسة وأن البحث العلمى يكشف وراء تلك التفاصيل وهذه الخصوصيات بعض الملامح العامة التى ستكون لها قيمتها فى فهم الحياة الاجتماعية لأولئك الناس فهما افضل ، وبالتالي تخطيط تلك الحياة على نحو أكثر كفاءة كما قد ترى الاسرة — حتى لو قبلت مبدأ البحث — أن هناك بعض الامور التى لا يحق للباحث السؤال عنها لانها من أسرار البيت كالسؤال عن كميات الطعام وتوزيعها . الخ .

كما أن الباحث الرجل فى هذا الموضوع سوف يجد حوله كثيرا من التعليقات التى تسخر من اهتمام رجل بموضوع يدخل فى دائرة اهتمام النساء . وهل يصح لرجل أن يسأل عن طرق طهى الطعام وترتيب المائدة . الخ . والرد على ذلك ان البحث العلمى المتقدم لا يعرف اليوم تفريقا بين الرجل والمرأة ، لان القضية منهج ، واهداف علمية نضعها نصب اعيننا ، واذا التزمنا بها فان الرجل يستطيع أن يحصل على نفس الثمرة كالمرأة تماما .

كما سيعتقد كثير من الناس أن بعض الآداب والقواعد السلوكية التى تسأل عنها فقرات الدليل تمثل السلوك الامثل أو السلوك المتحضر ، ومن ثم يود أن يجيب عن تلك الاسئلة بالايجاب فى كل حالة لكى يظهر نفسه بمظهر المتحضر . فيتصور ان الاكل بالشوكة والسكينة من الامور التى يجب ان يتحلى بها ، مع أننا نعرف انها عادات غريبة واعدة على ثقافتنا ، وان ممارستها لها ليس مقياسا للتحضر الحقيقى ، كما ان تركها ليس دليلا على التخلف .

سوف يواجه الباحث كذلك صعوبة العثور على ائلة حية على بعض اصناف الطعام أو الشراب ، خاصة تلك التى اختفت ، فربما كانت تلك الاصناف تصنع من مواد مستوردة من خارج البيئة ، أو من مواد كانت نزرع

في البيئة ثم لم تعد كذلك . ثم ان الناس الذين كانوا يمارسونها بأنفسهم ربما لا يكونون على قيد الحياة ، أو ليس من المتاح للاخبارى لقاؤهم ، مثل تلك الاصناف سيكون من المستحيل على الباحث ان يجمع ادلة حية على تلك المواد .

يرتبط بتلك المشكلة صعوبة أخرى وهى ان الباحث قد يتحتم عليه في بعض الاحيان ان يحكم على بعض الاصناف برؤيتها أو حتى بتذوقها وبدون هذا لا يستطيع ان يقدم لنا وصفا دقيقا لشكلها أو لمكوناتها . وتلك مشكلة تنقل ولا شك من كفاءة البيانات الميدانية ، ولكن من الممكن علاجها من سبيل آخر ، بالوصول الى الاخباريين المناسبين الذين يمكنهم تقديم بيانات دقيقة موثوق بها . وان كان تحقق ذلك التذوق المباشر يجعل للبيادة الميدانية درجة من اليقين والدقة يستحيل ان تتصف بها أى دراسة أخرى .

ومن الصعوبات الهامة ان طرق اعداد الطعام قد تتنوع تنوعا شديدا من أسرة الى أخرى ، ومن بيت الى آخر داخل نفس المجتمع المحلى ونفس المستوى الاجتماعى الاقتصادى . الامر الذى يجعل من الصعب التوصل الى ترميز عام يمكن وصفه بعبارات محددة وموحدة . فالكثافة على سبيل المثال يمكن ان تختلف طرق اعدادها اكبر الاختلاف من أسرة الى أخرى . وقد تعرف الاسرة الواحدة عدة طرق لاعدادها . تعدها تارة بهذه الطريقة ، وتارة بطريقة أخرى . لان هذا يعجب البعض ، وذلك يعجب البعض الآخر . . وهكذا .

والوجه الآخر لتلك المشكلة ان نجد داخل المنطقة الواحدة نوعا شديدا في اصناف الطعام : أو قل في « ثقافات الطعام » . فهناك اصناف ترجع الى أصول تركية ، وأخرى ترجع الى أصول أوروبية ، وثالثة ترجع الى أصول آسيوية . الخ . ولذلك يختار الباحث في اختيار الطريقة أو الاصناف التى تعتبر نمطية Typical أو ممثلة لهذا المجتمع . والمثال الواضح على هذا الموقف بيئة المنطقة العربية (الحجاز) — خاصة جده ومكة والدينة — حيث تجد تنوعا كبيرا في الثقافات الغذائية ، أولا بسبب تنوع الاصول السكانية من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب وجود الحجاج لفترات طويلة (متمثلة في بقايا الحجاج) الذين يمتكون بعد قضاء الفريضة (في الماضى طبعا) ويجلبون معهم ألوان طعامهم الوطنية ، ويمارسونها فترة طويلة ، فنطول فترة « العرض » أو التقديم التى يقدم فيها هذا الطعام نفسه الى السكان المحليين . ومن الطبيعى بعد هذا ان تجد بعض الاصناف هوى في نفوس السكان المحليين ، ويتبنونها ويعتبرونها جزءا من طعامهم ويمرور الوقت يتعذر معرفة الاصيل من الدخيل . وقد يزيد الموقف تعقيدا ان يحدث تطعيم

أو مزج بين القديم والجديد ، وتتكون أصناف جديدة هي ثمرة امتزاج ثقافتين . ولم تكن بصورتها تلك الموجودة في أي بيئة قبل ذلك . مما يزيد صعوبة التحليل التاريخي . وصعوبة عملية التنهيط .

تلك نماذج من الصعوبات التي يمكن ان تصادف الباحث في عادات الطعام يمكن ان نستمرسل في عرضها ، ولكن يكفي ان نأخذ في المرحلة الحالية فكرة أولية عنها . وقد يجد الباحث أن بعضها لا يمثل مشكلة بالنسبة له . كما قد تبرز أمامه صعوبات جديدة لم نتطرق إليها في هذا العرض السريع وحسن اختيار الباحث لموضوعه ، وحسن اختياره للاخباريين ، ولباقته واخلاصه لدراسته . . كل ذلك كميل بنجاحه في تحقيق كل اهدافه من الدراسة والوصول الى النجاح المنشود .

١١ — من المفيد ان يستعين الباحث بكتب الطهي الموجودة ، ليس حبا في دراستها في ذاتها ، فهذا بعيد عن مجال اهتمامه ، وإنما لكي يتتبع دورها وتأثيرها على ثقافات الطعام في البيئات التي تعيش فيها . ولذلك تمثل كتب الطهي أحد مجالات الدراسة الهامة للمهتم بهذا الموضوع. هذا مع ادراكنا الواضح أنها ليست دراسات ، وليس لها أي طابع علمي ، ولم يستهدف أصحابها الاسهام في مجال العلم . الا أننا ندرك مع ذلك الدور الذي تلعبه على محورين :

الأول : الاسهام في نقل تراث الطعام وبعض الاصناف والاكلات وبعض طرق الطهي الى الاجيال الجديدة مستفيدين بوسائل الاتصال الحديثة ، حيث اصبح الكتاب يخرج مزودا بعشرات ومئات الصور — العادية والمونة — وتطبع منه عشرات أو مئات الآلاف ، فيوصل الى دوائر اوسع من وسائل الاتصال أو الانتشار التقليدي ، متجاوزا بقوة الحدود المحلية الضيقة لانتشار الصنف أو الطريقة في الماضي .

الثاني : الاسهام بأكبر دور في تطوير التراث في هذا الميدان . وذلك باقتراح افكار أصناف جديدة ، وابتكار طرق طهي مستحدثة ، وذلك سواء من ابتكار صاحب الكتاب أو صاحبه ، أو نقلًا عن مطبخ شعب آخر . وفي جميع الاحوال تعمل كتب الطهي في هذه الناحية على احداث ثورة بعيدة المدى بطيئة الايقاع عميقة الجذور في ميدان اعداد الطعام وتزيين المائدة .

١٢ — لابد أن يولي الجامع أكبر اهتمامه بهرعاة الابعاد الثلاثة — الزمنية أو التاريخية والجغرافية والاجتماعية — للبيانات التي يجمعها .

عماذا كنا سيمعنا مثلا ان الكثافة تمثل اليوم صنفا هاما على موائد الطعام .
 فلا بد ان نسال عن مكانة هذا الصنف في الماضي (البعد التاريخي) ، وعن
 اختلاف هذه المكانة بين المجتمعات المختلفة او بين البادية والحضر أو الريف
 والحضر (البعد الجغرافي) ، واختلاف تلك المكانة بين المستويات الاجتماعية
 المختلفة كالطبقات والمهن وفئات العمر . الخ . (البعد الاجتماعي) .
 (انظر علم الفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٢٨٢ حيث تجد عرضا لتلك الابعاد
 المختلفة) .

والموقع من الجامع ان يهتم بربط كل معلومة يحصل عليها بهذه الابعاد
 الثلاثة دون ان يطلب منه ذلك صراحة . ولكن الجامع سيلاحظ اننا برغم
 هذا التأكيد قد طلبنا صراحة في بعض الاسئلة الاهتمام بالبعد التاريخي .
 او بالبعد الطبقي الاجتماعي . وذلك في الحالة الاولى بالنسبة للظواهر التي
 تكشف ابعاد التغير ومعالمه واتجاهاته . وفي الحالة الثانية بسبب أهمية
 الملاحظة الكبرى في ارتباط آداب أو قواعد أو أصناف معينة بجماعة أو مستوى
 اجتماعي معين . فمضى مثل هذه الاسئلة ليس الهدف هو الحصول على
 المعلومات في ذاتها ، بقدر اهميتها في تطيل التغير ، أو التطيل الاجتماعي .

ويلاحظ الجامع بصفة عامة أن الاتجاه العام الذي تتبناه هذه الدراسة
 والذي على أساسه صيغت كل اسئلة الدليل هو الاتجاه الجماعي ، ودون
 ثم يتوقع منه أن يولى البعد الاجتماعي الاهتمام الواجب دون أن يطلب
 منه ذلك .

١٣ — بالنسبة لمفهوم أو تعبير « مائدة الطعام » الذي ورد في عديد
 من الاسئلة ، فلا بد أن يدرك الجامع أننا لا نقصد المائدة كمنضدة أو طاولة
 يوضع عليها الاكل ، وإنما نقصد جلسة الطعام نفسها ، أو الوضع الذي ترتب
 به اصناف الطعام أمام الاكلين . إذ من الطبيعي أننا لا نفترض أن كل الناس
 يتناولون طعامهم على مائدة أو على منضدة .

المراجع والنوامش

- (١) انظر مزيداً من تفاصيل هذا التعريف ومناقشة جوانبه المختلفة عند : محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، دراسة في الاثنوبولوجيا الثقافية ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٠ حـ ص ٦٤ - ٦٥ وكذلك حـ ٦٥ وما بعدها .
- (٢) انظر بيلوجرافيا الفولكلور العربي التي ساهمت كاتبة هذه السطور في اعدادها ، مصادر دراسة الفولكلور العربي ، قائمة بيلوجرافية مشروحة ، اشراف د . محمد الجوهري ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، حيث يتضمن قسم عادات الطعام عديداً من المؤلفات حول مواد الطعام بعضها من كتب التراث ومن الدراسات المعاصرة على بعض البيئات العربية .
- (٣) تامت كاتبة هذه السطور باجراء مجموعة من الدراسات الميدانية المركزة لعادات الطعام وآداب المائدة في عدد من المجمعات المحلية في منطقة الحجاز وذلك خلال عام ١٩٧٨/٧٧ . وسوف اولى شرها تباعاً بانن الله . انظر الاشارة اليها في : علياء شكرى ، بعض ملامح التمر الاجتماعي الثقافي في الوطن العربي ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٩ .
- (٤) انظر كل التفاصيل المتعلقة بهذا الأسلوب من التحليل عند : محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، مرجع سابق - الفصل الحادى عشر ، الاتجاه الاجتماعى والسوسيوولوجى .
- (٥) وضعت كاتبة هذه السطور طويلاً منملاً لدراسة عادات الطعام وآداب المائدة في البيئات العربية يتضمن حوالى ٣٥٠ سؤالاً تنطبق الى كل جزئية من جزئيات تلك الممارسات الشعبية ، والهدف منه ان يتيح أداة موحدة للدراسة يمكن ان تيسر عملية القارنة فيما بعد .
- (٦) انظر : علياء شكرى ، الأسرة النووية والتعنيع ، فصل في الكتاب التالى : السيد الحسنى وزملاؤه ، دراسات في التنمية الاجتماعية : الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ .